أنّهم قد اعتمدوا في كلّ ِ أمرِهم على النّ َسقِ الذي يَرونه في الألفاظِ وجعلوا لا يحفلون بِغيره ولا يُعوّ ِلون في الفصاحةِ والبلاغة على شيء سواه حتى انْتَهوْا إلى أنْ زعموا أنّ َ من عمَدَ إلى شعرٍ فصيح فقرأه ونطقَ بألفاظِه على النّ َسَقِ الذي وضعها الشاعرُ عليه كان قد أتى بمثل ما أتى به الشاعرُ في فصاحته وبلاغته . إلاّ أنهم زعموا أنه يكون في إتيانه به محتذياً لا مبتدئاً .

ونحن إذا تأملنَا وجدنا الذي يكونُ في الألفاظِ من تقديمِ شيءٍ منها على شيءٍ إنما يقعُ في النفس أنّه نسَق إذا اعتبرنا ما تُوُخّ ِي من معاني النّ َحو في معانيها . فأما مع ترك اعتبار ذلك فلا يقعُ ولا يُتَصوّ َر بحال . أفلا ترى أنك لو فرضتَ في قولهِ : .

(قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ) .

أن لا يكون " نَبْك " جواباً للأمْر ولا يكون مُعدّ ًى بِمنْ إلى " ذكرى " ولا يكونَ " ذكرى " مضافةً إلى " حبيب " ولا يكونَ " منزل " معطوفاً بالواو على " حبيب " لخرجَ ما ترى فيه من التقديم والتأخيرِ عن أن يكونَ نسقاً ذاك لأنّ َه إنما يكونُ تقديمُ الشيءِ على الشيءِ نَسقاً وترتيباً إذا كان التقديمُ قد كان لموجبٍ أوجبَ أن يُقدّ َمَ هذا ويؤخّ َر ذاك . فأما أن يكون مع عدم الموجب نَسقاً فَمحال لأنه لو كان يكونُ تقديمُ اللّ َفظِ على اللفظِ من غير أن يكونَ لهُ موجِبٌ نَسقاً لكان يَنبغي أن يكونَ تَوالي الألفاظِ في النّ ُطق على أيّ ِ وجهٍ كان نَسقا . حتى إنك لو قلتَ : " نبكِ قفا حبيبِ ذكرى من " : لم تكنْ قد أَعْدَمْتَهُ النسقَ والنظمَ وإنما أعدمْتَه الوزنَ فقط . وقد تَقدّ َم هذا فيما مضى ولكنّ َا أعدناه هاهنا لأن الذي أخذنا فيه من إسلامِ القوم أنفسهمِ إلى التقليد اقتضى إعادته .

واعلمْ أن الاحتذاءَ عندَ الشّ ُعراءِ وأهلِ العلم بالشّ ِعرِ وتقديره وتمييزِهِ أن يبتدئَ الشاعرُ في معنًى له وغرضٍ أسلوباً - والأسلوبُ : الضربُ مِنَ النّ َظمِ والطريقةُ فيه - فيعمدَ شاعرٌ آخرُ إلى ذلك الأسلوبِ فيجيءَ به في شعره فيشبّ َهُ بِمَنْ يقطَعُ مِن أديمهِ نعلاً على مثال نعلٍ قد قَطعها صاحبُها فيقال : قدِ احْتذى على مثالِه وذلك مثلُ أَنّ َ الفرزدق قال - الطويل - : .

(أَتَرجو رُبَيْعٌ أن تجيءَ صِغَارُها ... بخيرٍ وَقدْ أعيا ربيعاً كبارُها)